بسم الله الرحمن الرحيم

من

معطيات الإسلام للحضارة الإنسانيّة

ياسر نديم الديوبندي

خريج الجامعة الإسلاميّة دار العلوم ديوبند، الهند

باسمه سبحانهٗ

من معطيـات الإسلام

للحضارة الإنسانيّة

بقلم: ياسر نديم الديوبندي
خريج الجامعة الإسلامية دارالعلوم ديوبند (الهند)

كان العالم الإسلاميّ منغمسًا في جنح الظلام طوال القرن السادس الميلاديّ وفق ما اتفق عليه المؤرّخون، وكانت الجهالة المطبقة تطّرد، وأشعّة النور تفقد، وقد نسي الإنسان ما أثر من بقايا الحضارة، والثقافة اللّتين درست أثارهما، وطمست دمنهما، وقد حلّت محلّهما حضارة طارفة، وثقافة قشبية، كان الناس فيها أتباع من غلب، وتركّزتا على المنطلقات المعارضة للنظام الإلهيّ، من إراقة الدم دون ذنب، ونهب، وظلم، وتمزيق عفاف النساء، وتمييز بين الطبقتين، العليا والدنيا، و بين الأثرياء والبائسين، وبين جنس دُون جنس، وبين لون دُون لون، وابتنتا على إثارة هوى النفس، فكما أنّ الإنسان ادّعى فيهما الألوهيّة علوًا واستكبارًا وتحدّى لها، كذلك هبط إلى قرارة الهُوّة، حتى سقط من عين نفسه، وسجد للجماد، وعبد كلّ ما يخافه، أو ينتفع به، سواء كان من الفلكيّات أم من الأرضيّات ثم من النباتات أم من الجمادات، وقد اندثرت تعاليم الأنبياء عليهم الصلاة والتسليم من قلوب الناس إلاّ قليلاً منهم، كانوا كقنديل تضاءل ضوءهٗ، وقد أخفق فى تبديد الظّلام، فلجأوا إلى عزلة الكنائس والصحارى مخفين أمانة الدين فى صدورهم، ومعرضين عن مَراد الحياة، وتحرّر بهم ناس في زيّ الشياطين للتمتّع باللّذات، والانغماس فى أوّار الهوى.

الملل و النحل: قد تم اطلاع العالم على نحل جمعاء سوى الإسلام، وعرف المسيحيّة واليهوديّة وما احتضنتا من عقيدة، وطريق عبادة وما إلى ذلك، ولكن الناس مسخوهما، و ألبسوهما أثواب الكفر والشرك، وكلّ من كان ناجعا أو ضارّاً يُعبد، وما زال الإنسان يُستغلَ دينيًّا تحت رأية المجوسيّة، والبوذيّة ولم تضمّ هذه النحل أيّة رسالة للعالم، وإن كانت المسيحيّة واليهوديّة تحملان رسالة إلٰهية، ولكنها كانت تليق بأن ترفض، وحريّة بأن تنفى، ولكن سدنة النحلتين وأحبارهما وضعوا الكتب المنزّلة من اللّٰه فى غير مواضعها، وحرّفوها

تحريفًا بالغًا حتى جلعوها تحمل تناقضات صارخة حول الدين، وحقيقته وعقائده، وعبادته، ولم يبق لديهم عتاد إلاّ الترف، وحبّ المال والمهابة، والهبوط الخلقيّ، والتدهور الاجتماعي، والمشكلات العقديّة، ونبذة من الأصول التافهة، غير المتينة، والسديدة، ليست من العقل الصحيح في شئ.

نظرة فى المسيحيّة : لم تحمل المسيحيّة في يوم من الأيّام تفصيلاً ووضوحًا يقوم عليه مجتمع، وتنشأ به حضارة، وتتشكّل به ثقافة، يقول العلاّمة أبوالحسن علي الندوي رحمه الله: ''كان في المسيحيّة أثارة من تعليم المسيح، وعليها مسحة من دين التوحيد البسيط، فجاء ''بولس'' فطمس نورها، وطعّمها بخرافات الجاهليّة التي انتقل منها، والوثنيّة التي نشأ عليها، وقضىٰ ''قسطنطين'' على البقيّة الباقيّة، حتى أصبحت النصرانيّة مزيجاً من الخرافات اليونانيّة والوثنيّة الروميّة، والأفلاطونيّة المصريّة، والرّهبانيّة، اضمحلت فى جنبها تعاليم المسيح كما تتلاشىٰ القطرة في اليمّ (١) فأرجفت تعقيدات قضيّة التثليث العالم المسيحيّ، حيث لايكاد يفهمها من وضعها، بل اندثر التوحيد، وغلب الشرك، كما أبعدت عقيدة الكفّارة الناس عن الدّيانة، وجعلتهم ذاهلين عن العبادة غافلين عن ما رضي به الله، منغمسين فى السّيات والأثام، ثم كانت رسائل العفو ضغثا على إبّالة، تباع وتشترى، فمن كان يرتكب إثمًا يشترى رسالة العفو من الكنيسة، ويتيقّن بعفّة نفسها، وتحرّرها من عذاب الأثام، وجرت هذه السلسلة فى كل مدينة، وقرية، ودسكرة، بل فى كل أنحاء العالم المسيحيَ، ولم تكن الرّسائل للتحرّر من وسخ الأثار، إنّما كانت تشترى للموتىٰ على سبيل الكفّارة، ووقعت أوربّا المسيّحية ولا سيّما الكنيسة في وحل الأثار (٢) كما أن الشرك دبّ في نفوسهم وسرىٰ فى حياتهم، يقول (SALE) مترجم القرأن الكريم الى الإنجليزيّة عن نصارىٰ القرن السادس الميلاديّ: وأسرف المسيحيّون في عبادة القديسيّن والصور المسحيّة حتى فاقوا فى ذلك الكاثوليك في هذا العصر (٣) وفي الجملة لم تبق من المسيحيّة إلاّ مجموعة من عادات بلا سهجة وتقاليد بلاروح، وأصول بلا حقيقة، وقواعد بلا متانة.

التدهور الخلقيّ في المسيحيّة: عندما عزّز غريكورى البابائيّة سنة **٥٤٠** من الميلاد ازدادت قوة البابا، وتضاعفت مهابتهُ ، وتولّى زعامة الناس دينيًّا وسياسيًّا، وامتلك خيارات بلا نهاية، وافتقر إليه أصحاب السلطات العظيمة، وأوصلهُ هذا الموقف المفاجئ من درجة الإنسان إلى درجة الإله، حتىّ أصبح العدول عن إطاعته إثما كبيرًا، عقوبتهُ قتل لاغير، يقول أسرار الرحمان البخاريّ : ''أطفأ البابا نور العلم لإدارة نظامه الكنسيّ غير الطبيعيّ، فمن كان يحصل على العلم أو يتكلم كلامًا يمسّ العَقل، يُعتقل، ويعاقب عقابًا شديدًا حتّى تنعى الإنسانيّة مظالم بابا رومة الأليمة على العلماء الذين شغفوا بالعلم، ونزعوا إلى المعرفة، وأزمعوا

الحصول على النور تاركين الظلمات، (**٤**)

أسّس البابا أجهزة التفتيش لإطفاء نور العلم، فمن كان يتعلّم علمًا أو يأخذ عقلهُ بيده، كان يعاقب غرسًا او تحريقًا، فكان هناك إثنان وثلثون ألف نسمة حرّقوا أحياء (**٥**)

حرّق الأسقف "تاركولي ميد إكستيل" عشرة آلاف ومائتين وعشرين رجلاً فى عشر سنوات، كما عاقب سبعا وتسعين ألف وثلاثمائة و أحدا وعشرين شخصًا عقوبات مولمة أخرى (**٦**) فكانت هذه الخطوات القبيحة أدّت إلى تدهور خلقي فى أوربّا المسيحيّة، والكنيسة.

يصوّر "ليكى" ما كان عليه العالم النصرانيّ من الهبوط الخلقيّ في ذلك العصر فيقول: "إن التبذّل، والإسراف قد بلغا غايتهما في أخلاق الناس واجتماعهم وكانت الدعارة والفجور والإخلاد إلى الترف، والتساقط على الشهوات، والتملّق في مجالس الملوك، وأندية الأغنياء والأمراء، والمسابقة في زخارف اللباس والحلي والزينة في حدّتها وشدّتها، كانت الدنيا في الحين تتأرجح بين الرهبانية القصوىٰ والفجور الأقصى، وإن المدن التي ظهر فيها أكثر الزهّاد كانت أسبق المدن في الخلاعة والفجور، وقد اجتمع في هذا العصر الفجور والوهم اللّذان هما عدوّان لشرف الإنسان وكرامته، وقد ضعف رأي الجمهور حتى أصبح الناس لايحفلون بسوء الأحدوثة والفضيحة بين الناس، وكان الضمير الإنسانيّ ربّما يخاف الدين و وعيده، ولكنّه أمن، واطمأنّ، لاعتقاده أن الأدعية وغيرها تكفّر عن جميع أعمال الإنسان، لقد نفقت سوق المكر، والخديعة، والكذب حتى فاق هذا العصر في ذلك عصر القياصرة" (**٧**)

يقول كاتب من إنجلترا متحدثا عن حالة بلاده في ذلك العصر: "كان أمراء القوم أكولين مترفين، لايتوجّهون إلى البيعة أبداً، وقد ابتكروا طريقًا لأداء صلوٰة الفجر، وصلاة القدس أن الأسقف المتملّق الساقط من عيونهم كان ينطق كلمات الصلاة فى مضاجعهم قبل أن يستيقظوا من نومهم، ولا ترهف آذانهم إلى كلمة، فكان هذا طريقا لأداء الصلاة، وقضاء شعائر الدين". (**٨**)

الوضع السياسيّ في المسيحيّة: يقول "داؤد فادر نغم" : "كان النظام البابائيّ يسود الكنائس إلى أقصى حدود السيادة، ويسيطر الإقطاعيّون على السياسة، وكلّ منهما يعادي الحريّة ويضاهي أحدهما الأخر أشدّ المضاهاة ظاهراً، وذالك أن العاهل كان مطلق السلطان فان مآت من الأمراء، والضبّاط، وآلاف من الجيوش كانوا تابعين لهُ، ومستعدّين للإتيان بكلّ ما يرضىٰ به، وكان الناس مضطرّين إلى القيام بكل نوع من أنواع الأعمال على إشارة الضبّاط في عصر السلام، ومكرهين إلى المساهمة في حروب لاتعرف الإنقطاع، وهذه هى منزلة الشعوب لدى أهل الكنائس، حيث كانوا عندهم كالأنعام بل هم أضلّ" (**٩**) كما أن البلاد

أقحمت في حرب أهليّة بسفسطة من الجدل العقيم حول الديانة وحوّلت المدارس، والكنائس، والبيوت معكسرات دينيّة متنافسة، واضطهد الناس اضطهادًا شديدًا تقشعرّ منه الجلود، وكانت الدكتاتوريّة، والجرشيّة تسودان البلاد، وجريرة ذلك معاني الرّاي العام لا ألفاظ لها عندهم.

التذمّر الاقتصاديّ : إلى جانب الانحلال الاجتماعيّ، والتدهور الخلقيّ، والانحطاط الدينيّ، والصراع السياسيّ بلغ التذمّر الاقتصاديّ غايتهٗ في أوربّا المسيحيّة، الذي ترك الملوك، والأمراء لايشغلهم إلا التمتّع بطيب العيش، ودفعوا الشعب في شظفه ولم يترك فيما بين الطرق غير مَمرّات ضيّقة، ونازعهم الموت والحياة طيلة عمرهم.

يقول "سى جستن" : "وعلى كثرة مصائب الرّعيّة ازدادت الأتاوات، وتضاعفت الضرائب حتّى أصبح أهل البلاد يتذمّرون من الحكومات، ويمقتونها مقتا شديدًا، ويفضّلون عليها كل حكومة أجنبيّة، وكانت الإيجارات، والمصادرات ضغثا على إبّالة، وقد حدثت لذلك اضطرابات عظيمة وثورات؛ وقد هلك عام **٥٣٢** في الاضطراب ثلاثون ألف شخص في العاصمة (**١٠**) وعلى شدّة الحاجة إلى الاقتصاد في الحياة أسرف الناس، ووصلوا في التبذّل إلى أحطّ الدركات، وأصبح الهمّ الوحيد اكتساب المال من أيّ وجه ثم إنفاقهٗ في التطرّف، والترف، وإرضاء الشهوات، ذابت أسس الفضيلة، وانهارات دعائم الأخلاق؛ حتى صار الناس يفضّلون العزوبة على الحياة الزوجيّة ليقضوا مآربهم في حرّيّة. (**١١**)

نظرة في اليهوديّة : إن اليهوديّة من الأمم التي تحمل الكتب السماويّة، وإنّها تمتاز من الدّيانات الأخرى بكونها أغنى الأمم مادّةً، وأوسعها عدّةً، وأقربها فهمًا لمصطلحات الدّين، ومعانيه، كما كان لديهم نبيّ، وكتاب، وشريعة، ومنهج، وقضايا خاصّة لها، ورغم ذلك لم تكن لهم ما تقوم عليه الحضارة، وتنشأ به الثقافة، ويتربىّ به المجتمع، وبالنسبة إلى ذلك كان اليهود على شفا جرف الفناء، ولم يطيعوا كتابهم، وشريعتهم وأحكامهما كلها، وأصبحوا أسوء نموذج في العصيان لخلقهم، كانوا في العلم كورق أبيض قد كتب عليه شئ، ثم انمحى الخطّ بتطاول الأمد، وصار الورق أبلىٰ، وأخلق، كما بيّن اللّٰه سبحانهٗ وتعالىٰ حالتهم العلميّة في القرآن: "مَثَلُ الَّذِيْنَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوْهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا" (**١٢**) ورغم عصيانهم منّ اللّٰه عليهم بإسباغ النعم عليهم، ولكنها زادتهم عصيانًا، وظنّوا بها عن أنفسهم أنهم أحبّاء اللّٰه، فادّعوا كما حكاه القرآن: "وَقَالَتِ الْيَهُوْدُ وَالنَّصَارى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللّٰهِ، وَأَحِبَّاؤُهٗ" (**١٣**) ثم أسرفوا في العصيان وجعلوا يقتلون الأنبياء، ويسفكون دمائهم، حتّى قضىٰ اللّٰه عليهم الدّمار، والهلاك، والدثور، والتخلّف، والانحطاط كما قال اللّٰه تعالى: "وضُرِبَتْ عَلَيهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللّٰهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوْا يَكْفُرُوْنَ بِآيَاتِ اللّٰهِ،

وَيَقْتُلُوْنَ النَّبِيِّيْنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوْا يَعْتَدُوْنَ". (١٤)

الانحطاط الخلقيّ: كما كانت إطاعة ما أمر الله به اليهود مستعصية عليهم، وعزيزة الجانب عليهم كذلك هووا إلى تخلّف أقصىٰ خلقيًا، وإنّهم ملّة لانجد فيها هذا الوصف من حيث القوم، فمارسوا أفعالاً من أوّل يوم تضادّ مكارم الأخلاق.

وهذا إلىٰ أن الخلق الطيّب يتصوّر أحد دعائم الحضارة، والثقافة، والمجتمع، وقد كان ينقصهم ذلك، فلم يمكن لهم تربية مجتمع صالح، وإقامة حضارة ، وتنمية ثقافة، فالتاريخ الإنسانيّ مملوء بما صنعوا من إفعال غير خلقيّة كما ذكر القرآن في شتى من المواضع حكاياتهم في هذا الإطار، كامتناعهم عن الجهاد ضدّ محتلّي الأرض المقدّسة، رغم النعم التى منّ الله بها عليهم، فقال تعالىٰ ناقلاً حكايتهم عند ما وجّه إليهم الخطاب: "يقَوْمِ ادْخُلُوْا الْأرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِيْ كَتَبَ اللّٰهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوْا عَلىٰ أدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوْا خَاسِرِيْنَ، قَالُوْا يَا مُوْسىٰ إنَّ فِيْهَا قَوْمًا جَبَّارِيْنَ، وَإنَّا لَنْ نَّدْخُلَهَا حَتّٰى يَخْرُجُوْا مِنْهَا فَإنْ يَخْرُجُوْا مِنْهَا فَإنَّا دَاخِلُوْنَ"۔ (١٥) وقال في موضع آخر: "قَالُوْا يَا مُوْسىٰ إنَّا لَنْ نَّدْخُلَهَا أبَداً مَّا دَامُوْا فِيْهَا فَاذْهَبْ أنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إنَّا هٰهُنَا قَاعِدُوْنَ". (١٦)

تحدّث هذه القصّة عن إنكارهم للجميل، وبطشهم، وسوء سيرتهم، وختلهم فلم يستعدّوا للجهاد ضدّ الجبابرة رغم أنعم الله، ومرافقتهم نصرتهٗ۔

يقول العلاّمة الندوي رحمهٗ الله: "قُضي على اليهود من قرون طويلة أن يتحكم فيهم غيرهم وأن يكونوا عرضة للاضطهاد والاستبداد، والنفي والجلاء، والعذاب والبلاء، وقد أورثهم تاريخهم الخاص وما تفردوا به بين أمم الأرض من العبوديّة الطويلة والاضطهاد الفظيع، والكبرياء القوميّة، والإدلال بالنسب، والجشع، وشهوة المال، وتعاطي الربا، أورثهم كلّ ذلك نفسيّة غريبة لم توجد في أمّة، وانفردوا بخصائص خلقيّة كانت لهم شعاراً على تعاقب الأعصار، والأجيال، منها الخنوع عند الضعف، والبطش، وسوء السيرة عند الغلبة، والختل والنفاق في عامّة الأحوال، والقسوة، والأثرة، وأكل أموال الناس بالباطل والصد عن سبيل الله". (١٧)

فارس وأحوالها الهدامة : قوم فارس حريّ بالذكر حيث أنّهٗ كان يشارك حلفاءه الرّوميّين في قيادة العالم، ويسيطر على نصف العمران، ويتولّى زعامتهٗ، وإلى جانب ذلك كان يحتضن حركات معادية للإنسانية، كما كان حامل لواء الأعمال المعارضة للطبيعة، ويتجرّد إلى عظمة سلطته عن حضارة تعرّفه عن الغريزة الإنسانيّة، وتقوم بإصلاح باطنها وتزّودها بأخلاق كريمة، وتغذّيها بذوق العيش، وتحلّيها بآدابه، وتسعدها بطيبه الأصيل، وتصونها عن قساوته، وتخلّصها من أن يكون عرضة للاضطهاد، والاستبداد، وتاخذ على يد الظالم، وتنتصف للمظلوم، وتحول بين الناس وطغيان الملوك وعسف الحكّام، وتقمع للشهوات النفسانيّة، وتحث

على المنايا الطيّبة.

كان أهل فارس يتحلّون بحضارة أخرىٰ عمودها الحقيقيّ، ودعمها الأول الشهوات، وكان عتاد حياتهم الأماني الخبيثة الشيطانيّة، وثروتهم الأصلية الجذوات الذميمة تندلع من حين إلى حين ولا تهدء إلّا بعد تمزيق عفّة امرأة، والعواطف البعيدة عن القرائح طالما تشتعل ولا تبرد، وهم لايعترفون بكراهية الأمور المعارضة للطبيعة وحرمتها، حتى أن المحرّمات النسبيّة لم تزل تواضعت على حرمتها ومقتها طبائع أهل الأقاليم المعتدلة، ولكن يزدجرد الثاني الذي حكم في أواسط القرن الخامس الميلاديّ تزوّج بنتهٗ ثم قتلها (١٨) و"بهرام جور" الذى ولّى الملك في القرن السادس كان متزوّجًا بأخته. (١٩)

يقول البروفيسور: "أرتهر جرستن سين" أستاذ الألسنة الشرقيّة في جامعة "كونبها جن" بـ"دنمارك" في كتابه "إيران في عهد الساسانيّين: "إن المؤرخين المعاصرين للعهد الساسانيّ مثل "جاتهياس" وغيره يصدّقون بوجود عادة زواج الإيرانيّين بالمحرّمات، ويوجد في تاريخ العهد الساسانيّ أمثلة لهذا الزواج، فقد تزوّج "بهرام جوبين" وتزوّج "جشتسب" قبل أن يتنصّر بالمحرّمات، ولم يكن يعدّ هذا الزواج معصية عند الإيرانيّين، بل كان عملاً صالحًا يتقرّبون به إلى اللّٰه، ولعل الرّحالة الصينيّ "هوئن سوئنح" أشار إلى هذا الزواج بقوله: إن الإيرانيّين يتزوّجون من غير استثناء". (٢٠)

مزيج عجيب من العزوبة واتباع الشهوات: قامت في إيران حركتان مهمّتان، كان داعية إحداهما "ماني" الذي ظهر في القرن الثالث المسيحيّ، فدعا إلى حياة العزوبة لحسم مادّة الشرّ، والفساد من العالم، وحرّم النكاح استعجالاً للفناء، وقتله بهرام سنة **٢٧٦**م، ولكن تعاليمهٗ لم تمُت بموته بل عاشت إلىٰ ما بعد الفتح الإسلاميّ.

وكان داعية ثانيتهما "مزدك" الذي ولد سنة **٤٨٧**م فأعلن أن الناس ولدو سواء لا فرق بينهم، فينبغي أن يعيشو سواء لا فرق بينهم، ولما كان المال، والنساء ممّا حرصت النفوس على حفظه، وحراسته كان ذلك عند مزدك أهمّ ما تجب فيه المساواة، والاشتراك (٢١)

قال الشهرستاني: "أحل النساء و أباح الأموال، وجعل الناس شركة فيها كاشتراكهم في الماء والنار والكلاء". (٢٢)

التفاوت بين الطبقات: لما كان شعب الفارسي يواجه مزيجا من العزوبة واتباع الشهوات، فكذلك يعاني مرض التفاوت بين الطبقات، كان الناس ينقسمون إلى طبقات بكثرة متزايدة حيث يحول بين طبقتين بنيان مرصوص لايمكن هدمهٗ.

يقول العلاّمة الندوي رحمه اللّٰه: "وكذلك اعتقادهم في البيوتات الرّوحيّة، والأشراف من قومهم، فيرونهم فوق العامة في طينتهم، وفوق مستوى الناس في عقولهم، ونفوسهم

ويعطونهم سلطة لا حدّ لها''۔ (**٢٣**)

يقول البرفيسور آتهرسين: ''كان المجتمع الإيرانيّ مؤسّسا على اعتبار النسب والحرف، وكان بين طبقات المجتمع هُوّة واسعة لا يقوم عليها جسر، ولا تصل بينها صلة۔ (**٢٤**)

وكانت الحكومة تحظر على العامّة أن يشتري أحد منهم عقارا لأمير أو كبير، (**٢٥**) وكان من قواعد السياسة الساسانية أن يقنع كل واحد بمركزه الذي منحهُ نسبهُ، ولا يستشرف لما فوقهُ (**٢٦**) ولم يكن لأحد أن يتخذ حرفة غير الحرفة التى خلقهُ اللّٰه لها (**٢٧**) وكان ملوك إيران لا يولون وضيعًا وظيفة من وظائفهم''. (**٢٨**)

هذه المفاسد سوى المساوئ التى جرت مجرى اللّحم والعظم من الإيرانييّن في زيّ العصبيّة القوميّة، وتقديس الأكاسرة، وعبادة النار، وقد طربوا بها، وكانت هذه المفاسد تُروّج في المجتمع باسم المحاسن، والحركات الغريبة الوليدة تظهر إلىٰ حيّز الظهور حينا بعد حين التى كانت تدعو إلى الأمور المعادية للطبيعة بدل قيادة الإنسان إلى أصله، والتى كانت ملتقى المفاسد، ومهبط المساوئ، وبالجملة قد هبطت إيران رغم سعة حدودها إلى أحطّ الدركات دينيًّا، وخلقيًّا، واجتماعيًّا، وحضاريًّا، وثقافيًّا، وسياسيًّا.

البوذيّة ودورها في الحضارة : تمتاز البوذيّة بين الديانات الأخرىٰ من حيث أنّها حاولت في الشرق إرسال أشعّة النور في جنح الظلام، وأخذت بأيدي الذين تورّطوا في الوحل الخلقيّ، ولعبت دورًا مهمًّا في القضاء على نظام الطبقات الشائع في أرجاء الهند وما جاورها من بلاد، علينا أن نعترف أن ''غوتم بوذا'' كان مصلحًا عظيمًا قبل الإسلام في ضوء تعاليمه، وأنّه سعىٰ في تطهير المجتمع من الخبث كما يتجلّى ذلك فيما يلي من تعاليمه.

(**١**) لاتقتلوا حيوانًا.

(**٢**) لاتسرقوا ولا تسمحوا لأحد بالسرقة.

(**٣**) لاتزنوا.

(**٤**) اجتنبوا عن الكذب.

(**٥**) احترزوا من المخدّرات. (**٢٩**)

ولكن الدّيانة لايمكن لها البقاء حتى لايشيّد مبناها على المنطلقات الأساسيّة لها، وكان من أكبر عوامل اضمحلال الديانة البوذيّة، أنها توجّهت إلى أيّ بلاد، أصبحت معتقداتها وتقاليدها أجزاءَها التى لاتتجزّأ، فقد وقع التفاهم في الهند مع المعتقدات البرهمنيّة، حتى تدرّجت في التغلّب على البوذيّة وتعاليمها، وظلّت الفلسفة البوذيّة تندثر وهكذا حدث في بلاد أخرىٰ من تبّت، والصين، واليابان، ولانكا، وبورما.

يقول العلاّمة الندوي رحمه اللّٰه : ''أمّا البوذيّة فقد فقدت بساطتها وحماستها، وابتلعتها

البرهميّة الثائرة الموتورة، فتحوّلت وثنيّة تحمل معها الأصنام حيث سارت، وتبني الهياكل، وتنصب تماثيل بوذا حيث حلت ونزلت، وقد غمرت هذه التماثيل الحياة الدينيّة والمدنيّة التي ظهرت في عهد ازدهار البوذيّة''. **(٣٠)**

يقول الأستاذ إيشور أتوبا أستاذ تاريخ الحضار الهنديّة في إحدىٰ جامعات الهند: ''لقد قامت في ظلّ البوذيّة دولة تعنى بمظاهر الالهة، وعبادة التماثيل، وتغيّر محيط الرابطات الأخويّة البوذيّة، وظهرت فيها البدع''. **(٣١)**

وبالجملة لو تبقّت الديانة البوذيّة علىٰ التعاليم الحقيقيّة لمؤسّسها ''بوذا'' لعلها أثارت ثورة حضاريّة وخلقيّة، كما قامت بها هي في الماضي، ولكنّها لما فقدت أساسها، وأصبحت كبرىٰ حاملات لواء الوثنيّة، لم تبق لديها رسالة يصل العالم إلى حلّ قضاياهٗ في ضوئها، ويهتدي إلى صراط مستقيم، ويكسب سمو الخلق، ويتبني رفعة الحضارة، فإن الشرك لظلم عظيم، والوثنيّة أكبر المعاصي في الكون، ولما سرت تلك في البوذيّة على مستوى رفيع فلا يستعصي تقدير العيوب الأخرىٰ فيها.

الهندوسيّة و هويّتها الدينيّة : الهندوسيّة ديانة وحيدة لايطّلع متطوّعوها على بانيها، فإنّها ثمرة عقول كثير من الناس وقلوبهم، ومخترعة قرائحهم، فلذا لايمكن إسنادهٗ إلى أحد منهم كما لايتمكّن من انتماء كتب هذهِ الدّيانة إلى أحد منهم، رغم أن بضعة من رجال الدين خرجوا إلى حيّز الظهور فيما بعد، ولكن اللاّشخصيّة ختمت علىٰ مدارج بدائيّة للدّيانة لمساهمة رجال كثيرين في تشكيل النظام الدّينيّ، فلذا لاتحتضن الهندوسيّة عقيدة واحدة ولا يتواجد فيها التكامل بين عاداتها، وتقاليدها، وشعاراتها، كأنّها غابة لفّاء ذات آلاف ممرّ غير مستقيم بتنوّع معتقداتها، واختلاف سبل عباداتها، وكثرة نُصبها.

فقد كان عدد الآلهة في ''ويد'' ثلاثة وثلاثين، وأصبحت في القرن السادس الميلاديّ **٣٣٠** مليون، وقد أصبح كل شئ رائع، وكلّ شئ جذّاب، وكل مرفق من مرافق الحياة الٰها يعبد، وهكذا جاوزت التماثيل والآلهة الحصر، وأربت على العدّ، وأصبحت الدّيانة نسيجًا من خرافات، وأساطير، وأناشيد، وعقائد، وعبادات ما أنزل اللّٰه بها من سلطان ولم يستسغها العقل السليم في زمن من الأزمان.

يقول الدكتور ''غستاولى بان'' في كتابه ''تمدّن هند'' : ''لابدّ للهندوسيّة بين ديانات العالم من وجود تمثال للعبادة، وإن حاول نبذة من المصلحين في مختلف الأزمنة إثبات التوحيد ولكن جهودهم ضاعت سُدى، فإن الهندوس يعتقدون كل شئ لايدركونهٗ، ولايتمكنون من المقاومة معهٗ الٰها يعبد، وحبطت مساعي البراهمة، والفلاسفة حول إثبات التوحيد أو خفض عدد الآلهة إلى ثلاث، وقد سمع الناس تعاليمهم و قبلوها، ولكن ثلاثة آلهة ظلّت تُربي عددًا''.

(٣٢)

تعاليمها الخلقيّة والاجتماعيّة : لايُتوخّى من الديانة التي ليست إلاّ هزلاً أنّها قامت بدور في تهذيب الحضارة والأخلاق، لأن الذين يؤمنون بالصراع بين من يعبدونهُ من آلهة نتيجة المعتقدات الأسطوريّة، ليسوا من شأنهم الاقتباس من القصص رسالة تهديهم، وتقودهم وتمهّد لهم في معالجة قضايا الحياة، كما أنّ كتب "ويد" التي يدّعى عنها معتنقو هذه الدّيانة بكونها منزّلة من اللّه، والتي يتّفق على قدسيّتها وعظمتها المجتمع الهندوسيّ تبلّغ تعاليم معارضة للأخلاق، وتعرض ديانة في الزيّ الهمجيّ كما يتجلّى ذلك فيما يلي من تعاليم كتب "ويد" حول من لايرضىٰ بها :

"حرّقوا حيّا كلّ من يعارض الدّيانة" (يجرويد)

"دمّروا الأعداء، وأهلكوهم جائعين" (يجرويد)

"أهلكوهم بكل طريق مشروع وغير مشروع" (يجرويد)

"أيّها الملوك المعتنقون ديانة "ويد" كونوا كضرغام، فأكلوا أعداءكم، وكونوا كنمر فكبّلوهم واغتصبوا ما يأكل معارضوكم". (أترويد)

وهذا إلى أن الديانة حافلة بتعاليم الجذوات الشهويّة، والمهيجات الجنسيّة، ولم تدخل الأمور المعادية للفطرة في صميم ديانة مثل ما دخلت في صميم الديانة الهندوسّة، فالكتب الدينيّة لها مليئة بأقاصيص أسطوريّة خليعة العذار تستكّ منها المسامع ويتندى لها الجبين حياء.

يقول العلاّمة الندوي رحمه اللّه: "يحدّث بعض المؤرخين أن رجال بعض الفرق الدينيّة كانوا يعبدون النساء العاريات، والنساء يعبدن الرجال العُراة، وكان كهنة المعابد الخونة والفسّاق الذين كانوا يرزؤون الراهبات والزائرات في أعزّ ما عندهم، وقد أصبح كثير من المعابد مواخير يترصّد فيها الفاسق لطلبته، وينال فيها الفاجر بغيتهُ، وإذا كان هذا شأن البيوت التي رفعت للعبادة والدين فما ظنّ القاري ببلاط الملوك، وقصور الأغنياء، وكان فيها مجالس مختلطة من سادة وسيّدات، فإذا لعبت الخمر برؤوسهم خلعوا جلباب الحياء والشرف وطرحوا الحشمة، فتوارى الأدب، وتبرقع الحياء، هكذا أخذت البلاد موجة من الشهوات الجنسيّة والخلاعة، وأسفّت أخلاق الجنسين إسفافا كبيرًا". **(٣٣)**

الهوّة بين الطبقات : تضمّ الهندوسيّة التفاوت بين الطبقات المعادي للإنسانيّة، لم تشهدهُ أيّة ديانة وقوم ومجتمع مثل ما شهدهُ المجتمع الهنديّ القديم، ومن حاول من مصلح هندوكيّ أن يزيله، ضاعت جهودهُ، وبقي التفاوت في المجتمع يعوث به سوس الدّمار فيه.

فمبدأ التفاوت عصر كتب "ويد" الأخير حينما ورد الآريون الهند من بلاد إيران حاملين ديانتهم، وحضارتهم، ومعتقداتهم، فرأو التفاوت النسليّ لازما للمحافظة على خصائص

السلاّلة الارية المحتلّة ونجابتها، وقبل ميلاد المسيح بثلاثة قرون وضع "منو" القانون للمجتمع الهندي، ولقي كتابهٔ إقبالا في الأوساط كلّها، وأصبح قانونًا رسميًّا ومرجعًا دينيًّا وهو المعروف الان بـ "منو شاستر".

فينقسم أهل بلاد الهند وفق القانون الرسميّ هذا إلى أربع طبقات، وهي :

(**١**) البراهمة: رجال الدين وطبقة الكهنة. (**٢**) شتري: رجال الحرب. (**٣**) ويش: رجال الزراعة والتجارة. (**٤**)شودر: رجال الخدمة، ويقول منو مؤلّف هذا الكتاب :

"إن القادر المطلق قد خلق لمصلحة العالم، البراهمة من فمه، وشتري من سواعده، و ويش من أفخاذه، والشودر من أرجله، ووزّع لهم فرائض و واجبات لصلاح العالم، فعلى البراهمة تعليم ويد، أو تقديم النذور للآلهة، وتعاطي الصدقات، وعلى الشترى حراسة الناس والتصدّق، وتقديم النذور، ودراسة "ويد" والعزوف عن الشهوات، وعلى ويش رعي السائمة والقيام بخدمتها وتلاوة ويد والتجارة والزراعة، وليس لشودر إلاّ خدمة هذه الطبقات الثلاث". (**٣٤**)

ويصرّح هذا القانون الأسود بحقوق البراهمة: بأنّهم صفوة الله وملوك الخلق وأن ما في العالم هو ملك لهم فإنّهم أفضل الخلائق وسادة الأرض. (**٣٥**)

إلى أن من سعادة شودر أن يقوموا بخدمة البراهمة وليس لهم أجر وثواب بغير ذلك (**٣٦**) وللبراهمة أن يأخذوا من مال عبيدهم ما شاؤوا، لأن العبد لا يملك شيئاً وكلّ ماله لسيّده (**٣٧**) وليس لشودر أن يقتنوا مالاً أو يدّخروا كنزًا فإن ذلك يؤذي البراهمة (**٣٨**) وإن البرهمي الذي يحفظ "رك ويد" أحد الكتب المقدّسة هو رجل مغفور لهٔ (**٣٩**) كما يلقى الرصاص في أذني شودر على استماعه لكتب ويد، ويقطع لسانهٔ على قراءتها، ويشق قلبهٔ على حفظها. (**٤٠**)

هذه نبذة من تعاليم الدّيانة التي تجعل بعض الناس أحطّ من البهائم، وأذلّ من الكلاب، والتي تعكس الجنون، وتمثّل الهمجيّة، وتبتني على الأمور المعارضة للفطرة وتختصّ بقوم دون قوم، وتحافظ على مصالح خاصة لهٔ، وتعلّم الاضطهاد على أقوام أخرى سواه، وتلقّن اغتصاب طيب عيشها، وتمزيق عفافها، وتحلّل دماءها وأموالها، فلا يتوقّع منها -ولن يتوقّع- اهتداء الإنسانيّة إلى طريق الحق، ونهضة العالم بها إلى مدارج الفوز والفلاح ......

العــــرب: كانت للعرب مزايا يمتازون بها عمن سواهم من الأمم والملل، وأوصاف يتفوّقون بها على الآخرين كما كانت متخلّفة أشدّ التخلّف بعادات فيها بالقياس إلى الأجانب، فكان لهم في الفصاحة والبلاغة قدح معلّى، والصراحة في القول وجودة الحفظ، وقوّة الذاكرة يد طولى وتوافر فيهم حبّ الحرّيّة، والأنفة، والفروسيّة، والشجاعة، والحماسة في سبيل العقيدة، كما كانوا أهالى الوفاء والأمانة، مؤيّدي العزيمة، أقوياء الإرادة، رابطي الجأش، مرفوعي الرأس ولكنهم هبطوا لبعد عهدهم من النبوّة والرّسالة، واتباعهم العادات والتقاليد و تمسّكهم بما

أثر عن آبائهم من دين إلى أحطّ الدركات دينيًا وخلقيًا، وانغمسوا في الوثنيّة السخيفة قلّما يوجد لها نظير في الأمم المعاصرة، كما كانت قلوبهم جاشت في الجاهلية الجهلاء و رتعت في الدماء والأشلاء، واستهترت في اللهو والصهباء.

العرب ديانة : كان العرب يعتنقون صنوف النظريات قبل بزوغ فجر الإسلام، فيؤمنون بالفطرة والزمن، ولا يعتقدون بالله، يقول الله سبحانهٗ وتعالى فيهم :

''وَقَالُوْا مَا هِيَ إلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوْتُ وَنَحْيىٰ وَمَا يُهْلِكُنَا إلاَّ الدَّهْرُ'' (**٤١**)

و كان بعضهم يقولون بالإله، وينكرون القيامة، والعقاب، والجزاء، فأثبت الله القيامة إزائهم بقوله : ''قُلْ يُحْيِيْهَا الَّذِيْ أَنْشَأهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ''. (**٤٢**)

و كان لأغلبيّتهم دين غليظ كحياتهم هو هذه الوثنيّة الساذجة الغليظة التي لم تفكّر فيها عقولهم، ولم تمزج بقلوبهم، وإنّما كانت أخلاطًا ورثوها عن آبائهم، فلم يغيّروا منها شيئًا بل أنكروا كلّ من حاول أن يغيّر منها شيئًا كالذى صنعت قريش بزيد بن عمرو حين أظهر السخط على دينها (**٤٣**) كما أنّهم يعتقدون بوجود الله عزّوجلّ، ولم يكونوا ينكرون أن للسماوات والأرض وما فيها خالقا هو الإله الأعظم، قال الله عزّوجلّ فيهم :

''لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُوْلُنَّ اللّٰهُ فَأَنّٰى يُؤْفَكُوْنَ'' (**٤٤**) وقال: ''فَإِذَا رَكِبُوْا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللّٰهَ مُخْلِصِيْنَ لَهُ الدِّيْنَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إلىَ الْبَرِّ إذَا هُمْ يُشْرِكُوْنَ''. (**٤٥**)

ثم اقرأ إن شئت هذا البيت الذي أحبّه النبي صلّى الله عليه وسلّم من شعر لبيد فيما روىٰ الشيخان (**٤٦**)

ألا كلّ شئ ما خلا الله باطل وكلّ نعيم لامحالة زائل

وهذا إلى أن ما أثبتهٗ القرآن قبل قرون طويلة تصدّقهٗ دراسات الآثار القديمة كما يقول المستشرق الشهير ''نولديكى'' في موسوعة الدّيانات والأخلاق :

''كانت كلمة ''الله'' التى نجدها مكتوبة في لوحات ''صفا'' بشكل ''هله'' جزأ من أسماء سكّان الشمال والنباتيّين مثل ''زيد الله' (**٤٧**) نجد اسم الله في لوحات ''صفا'' كمعبود عظيم (**٤٨**) كانوا يلقّبون نصبهم بالله ثم اختصّت هذه الكلمة بالمعبود الحقيقيّ الإله على ممرّ الدهر. (**٤٩**)

ولكن علمهم بوجود الله كان ساذجًا لم يبلغ أعماق قلوبهم، ولم يصل إلى دخائل ضمائرهم ولم يمتزج بنفوسهم، فاتخذوا من دون الله آلهة قريبة منهم يرونها بأبصارهم، ويلمسونها بأيديهم، بل قد يصنعون كثيرًا منها بأيديهم كهذه الأصنام التي كانوا يتّخذونها من الحجارة أو من الخشب وكهذه الأشجار التى كانوا يعظّمونها، ويطوفون بها (**٥٠**) فكان

لكلّ مدينة أو قرية أو دسكرة أو ناحية صنم يختص بها، بل كان لكلّ بيت صنم خاص يعبدهٗ أهله ويطأطا له ذووه رؤوسهم، وينذرون لهٗ، قال الكلبيّ: كان لأهل كلّ دار من مكّة صنم في دارهم يعبدونهٗ فإذا أراد أحدهم السفر كان اٰخر ما يصنع في منزله أن يتمسح به، وإذا قدم من سفر كان أوّل ما يصنع إذا دخل منزله أن يتمسّح به (**٥١**) كما كانت في جوف الكعبة التي هي حاملة لواء الوحدانيّة، وذات المهابة والجلال ثلاث مائة وستون صنمًا. (**٥٢**)

روى البخاري عن أبي رجاء العطارديّ قال: كنّا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجرًا هو خير منه ألقيناه وأخذنا الاخر، فإذا لم نجد حجرًا جمعنا حثوة من تراب ثم جئنا بالشاة فحلبنا عليه ثم طفنا به. (**٥٣**)

العرب حضـــارة : إذا تركنا القرن السادس الميلاديّ إلى ردح من الزمن قبلهٗ وجدنا المؤرخين العرب والأوربّيين رأو أن العرب كانوا يملكون حضارة رفيعة وثقافة غنيّة أوّل الأمر، يقول مانسيو ليبان الفرنساوي: "كانت حضارة العرب وصلت إلى شعفة الكمال قبل أن برزت غزالة الإسلام، فإنّهٗ لايمكن لقوم أن ينهض فجأة من الهمجيّة إلىٰ المدارج العليا من الحضارة وفق قواعد الارتقاء (**٥٤**) كما يعترف به الباحثون من أوربّا الذين تفحّصوا الأثار القديمة وتفقّدوا اللّوحات الخلقة (**٥٥**) ويدّعي المؤرّخون العرب أن بلاد اليمن وصلت إلى قمّة الرقي في زمن من الأزمنة حتّى سيطرت على المناطق المجاورة لها، ودوّخت إيران، وتدلّ على ذلك الحصون الرفيعة الذرىٰ والمباني الضخمة التي بقي شئ من دمنها أوضح الدلالة وأقواها (**٥٦**) يقول العلاّمة الهمداني: "المشهور من محافد اليمن وقصورها القديمة التي ذكرتها العرب في الشعر والمثل كثيرة، الذي فيها من الشعر باب واسع۔ (**٥٧**)

وعند ما عدنا إلى القرن السادس المسيحيّ نجد أن الأمّة العربيّة كانت متخلّفة أشدّ التخلّف لها في الجنوب بقايا حضارة كانت قد درست، ولم يكن أهل الجنوب أنفسهم يعلمون من أمرها إلاّ أخلاطا هي إلى الأساطير أقرب منها إلى الحق، كانت أغلبيّتهم تعيش عيشة الأعراب في البوادي. وإذا تركنا الجنوب إلى قلب جزيرة العرب –أي إلى نجد– فالحياة القاسية، والعيش الغليظ، والجهالة المطبقة، ونظام القبائل الذي يقوم على العصبيّة أكثر مما يقوم على أيّ شئ اٰخر.

ولم تكن حال الشمال في تهامة والحجاز خيرًا من نجد، وإن كانت هناك مدن أو قرىٰ، و إن قضى أهلها حياتهم في الدعة والترف، ولكن توجد حولها البوادي والعائشون المتبدّيون بما فيهم من شظف العيش، وقسوة الحياة، وصلابة القلب، والتنقّل في التماس المروج، والظعن الريّق، والخصومات المتّصلة التي تثيرها العصبيّة بين القبائل، فمن الإسراف في الخطأ أن نظن أن أهل المدن والقرى برؤا من العصبيّة، وعاشوا عيشة المتحضّرين المتحلّين

بالثقافة، المتزينين بالتمدّن، ولم يكونوا متبدّين، إنّما العصبيّة كانت قوام حياتهم تثار بينهم الخصومات وتشبّ بينهم الحروب.

العــرب خلقيًّـا : أمّا من جهة الأخلاق، فدبّت في العرب أمراض جاوز عددها الحصر بأشبع أشكالها وهي التي أقست حياتهم، وكانت الخمر واسعة الشيوع، ينقص تاريخهم دونها فشغلت جانبا كبيرًا من شعرهم وأدبهم.

ولم يكن الزنا مستكرها ومستنكرًا فيهم، فكان من العادات أن يتّخذ الرجال خليلات وتتخذ النساء أخلاّء بدون عقد، وقد تروّجت طرقهٔ المتنوّعة في المجتمع كما ذكرتها السيدة عائشة رضي اللّه عنها في روايتها الطويلة التي رواها البخاري.

وكان القمار من مفاخر الحياة الجاهليّة، وكان عدم المشاركة في مجالس القمار عارًا.

وكان أهل الحجاز، العرب واليهود يتعاطون الربا، وكان فاشيًا فيهم، وكانوا يجحفون فيه ويبلغون إلى حدّ الغلو، والقسوة، وجرى مجرى الأمور الطبيعيّة التي صاروا لايفرّقون بينهٔ وبين التجارة الطبيعيّة وقالوا : "إنّما البيع مثلُ الربوا"- **(٥٨)**

وأصبحت الحرب جزءً لايتجزّأ من حياتهم، لايكمل بحث الباحث حولهم بدون ذكرها، وكان عاملها العصبيّة بين القبائل، والجهالة المطبقة، وفقد الشغل، مما أسفر عن حروب استمرّت إلى أربعين عاما كالروع التي شبت بين "بكر" و "تغلب" ابني وائل، أريقت فيها دماء غزيرة وما ذاك إلاّ لأن كليبا رمىٰ ضرع ناقة البسوس بنت منقذ فاختلط دمها بلبنها وقتل جسّاس بن مرّة كليبا، واشتبكت الحرب بين القبيلتين، وكان كما قال المهلهل أخو كليب :

قد فني الحيّان، وثكلت الأمّهات، ويتم الأولاد، دموع لاترفأ، وأجساد لاتدفن **(٥٩)**

مكانة المرأة في العصر الجاهليّ : لما كان معتنقوا الديانات في العالم منغمسين في الأدواء المتنوّعة قبل ظهور الإسلام التي أهبطتهم من درجة الإنسانيّة، وأهوتهم من العلى إلى السفلىٰ كذالك واجههم مرض آخر كان يعوث كسوس في بقيّة من شرفهم، وأثارة من عزّهم وذلك سلب حقوق المرأة التي منحها اللّٰه إيّاها منذ أن خلقها، والتشاؤم بها، والقضم عليها، وجعلها آلة لتبريد أوّار الشهوات، والتصوّر فيها أنّها أسّ المساوئ، وسبب المعاصي، والتقدير لها منزلة الشيطان، وكان هذا المرض الذي يستوى فيه جميع سكّان العالم إلاّ قليلاً كانوا كملح في الدقيق، عند ما نحلّل الديانات وتعاليمها نجد فكرة واحدة في تيّار واحد على مستوي واحد وذلك نقص المرأة من قيمتها، وتحويلها إلى البهيمة التي تدارك في قضاء مرافق الإنسان.

فيقول مفكر بوذيّ "جولا واغا" فيما نقلهٔ كاتب موسوعة الديانات والأخلاق: "تحتضن المرأة طبيعة كعادات السمك الغير المفهومة في داخل البحر، تمكر كمكر السارق ولا يماسّها

الصدق''۔ (٦٠)

ويذكر الكاتب أفكار الهندوس حول المرأة في موسوعته :

''إن للزواج أهميّة في البرهميّة، على كل رجل أن يزوّج، ولكن الزوج معبود للمرأة وفق مشروع ''منو''، عليها أن لاتقوم بعمل يسخط عليه الزوج، ولو اتخذ امرأة غيرها خليلةً أو مات، فليس لها أن تروم رجلاً آخر، لايمكن للمرأة التحرّر، ولاتنال ما تركه الزوج من مال وعرض، وللزوج أن يضرب زوجتها بالعصا. (٦١)

فإذا مات زوجها صارت كالموءودة لا تتزوّج، وتكون هدف الإهانات والتجريح، وكانت أمة زوجها المتوفّى وخادمة الأحماء، وقد تحرّق نفسها على إثر وفاة زوجها تفاديا من عذاب الحياة وشقاء الدنيا. (٦٢)

ويقول ''ري استريجي'' عن مكانة المرأة في الصين: ''كانت تقطع رجلا البنات الصغيرات، ليكنّ مشلولات غير قادرات، وكانت طبقة الأثرياء تعتنق هذه العادة. (٦٣)

ولم يكن اليهود يقدّرون المنزلة الرّفيعة للمرأة في المجتمع بل كانوا متخلّفين في ديانتهم، وخلقهم كذلك كانوا كغيرهم من أهل الديانات يسلبون حقوق المرأة، فلا ترث الأنثى أباها إن كان لهٗ ولد ، وإلا فهي ترثهٗ، ولكن ليس لها أن تزوّج في غير قبيلتها على ما تفيدنا الكتب المنتمية إلى موسىٰ عليه السلام۔ (٦٤)

كما حذا النصارىٰ حذو اليهود بعد ذلك، فكانت المرأة تحرم جميع أنواع الحقوق وتغلق لها أبواب العلم، والعمل، وكان عليها أن تتخلّى عمّا تملّكهٗ عند الزواج (٦٥) وكان العلماء والفلاسفة في العصر القديم يناقشون أن المرأة ذات مهجة أم لا؟ إن كانت فيها الصدى فهي إنسانية أم حيوانيّة؟ وإن كانت إنسانيّة فما هي المنزلة الاجتماعيّة التي تليق لها إزاء الرجل؟ هل هي أمة للرجل خلقيّة أم لها مكانة أرفع من الأماء (٦٦)

ولكن المجتمع الجاهليّ عديم النظير في الجور، والهضم على المرأة، فكانت عرضة الاضطهاد، والاستبداد، توكل حقوقها، وتغتصب أموالها، وتحرم إرثها، وتعضل بعد الطلاق أو وفاة الزوج من النكاح كما يقول اللّٰه سبحانهٗ وتعالىٰ ناهيًا عن هذا المنكر :

''وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَّنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوْفِ'' (٦٧) عن ابن عبّاس قال: كان الرجل إذا مات أبوهٗ أو حميّهٗ فهو أحق بامرأته إن شاء أمسكها أو يحبسها حتى تفتدي بصداقها أو تموت فيذهب بمالها''۔ (٦٨)

وقد بلغت كراهة البنات إلى حدّ الوأد، ذكر الهيثم العديّ، على ما حكاه عنه الميدانيّ، أن الوأد كان مستعملاً في قبائل العرب قاطبة، فكان يستعملهٗ واحد ويتركه عشرة، فجاء الإسلام، وكانت مذاهب العرب مختلفة في وأد الأولاد فمنهم من كان يئد البنات لمزيد الغيرة ومخافة